مجلة كلية الآداب (دورية أكاديمية علمية محكمة)

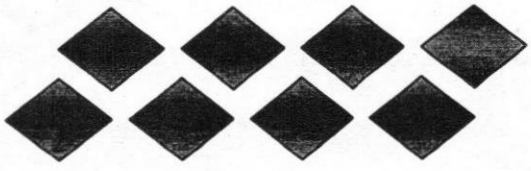

النظم وتضافر القرائن ونحو النص
بحث في جذور النظرية وعناصر مكوناتها

د. وحيد الدين طاهر عبد العزيز
مدرس بقسم اللغة العربية
بكلية الآداب بقنـــا - جامعة جنوب الوادي

الأبحاث

النظم وتضافر القرائن ونحو النص

بحث في جذور النظرية وعناصر مكوناتها

د . وحيد الدين طاهر عبد العزيز

توطئة:-

لا تزال نظرية النظم تلقى بظلالها على الدرسين اللغوي والبلاغي ، حيث يستقى أكثر البلاغيين واللغويين مادتهم من أفكار هذه النظرية ، والحق أن الخط الفاصل بين دراسات البلاغيين ودراسات اللغويين أصبح دقيقا ودائم التعرج ، إلي الحد الذى يصعب معه الفصل بين دراسات هؤلاء وأفكار أولئك ،بل وامتد تأثير هذه الأفكار عن النظم والتعليق إلي الدرس الأدبي الحديث حيث استقى نقاد الأدب – إبان حديثهم عن البنيوية والتفكيك والتلقى – أكثر مادتهم من أفكار هذه النظرية التى تعنى بدراسة العلاقات بين البني والوحدات اللغوية حين تكون في حالة تركيب للوصول إلي دلالات المفردات أفقيا ومن ثم الوصول إلى ماسماه النحاة الأوائل دلالات التراكيب ، ولقد كان الجرجانى (٤٧٢) عبقريًا عندما قال : " واعلم أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"[١] إلى آخر نصه الشهير ، حيث قصد بالنحو معناه اللغوي وهو انتحاء طرائق العرب في نظم الآراء والأفكار والإبداعات ولم يقصد بالنحو معناه الاصطلاحي أو ظاهر معناه من حيث هو قواعد وتمرينات عقلية ، والدكتور تمام حسان واحد من المفكرين اللغويين المعاصرين الذين أفادوا من أفكار هذه النظرية ، وقد اعترف بذلك في مقدمة كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) ، فقال "لما ظهر الاتجاه البلاغي إلي دراسة المعني كان من طلائع كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعلامة عبد القاهر الجرجانى الذي أعترفُ لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل على

---

(١) دلائل الإعجاز ٦٨ .

الجزء الخاص بتناول المعني النحوى والدلالي " [1] ،إلا أن الدكتور تمام حسان استطاع – بذكاء المفكر– أن يفيد من أفكار الدرس اللغوىّ الحديث فى الغرب – فأفاد من أفكار (دي سوسير) ونظريته عن اللغة بوصفها نظاماً من العلامات إلى جانب إلمامه بالفكر التراثى النحوى ، فطور نظريته التي سماها" تضافر القرائن "، وقال إنها "أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجرى بعد سيبويه وعبد القاهر "[2] أى أن فكر الدكتور تمام حسان قد انبني على أفكار عبد القاهر الجرجاني والفكر التراثى العربى إلى جانب معطيات الدرس اللغوى الحديث فى الغرب ،ومن الأفكار المنبنية علي أفكار عبد القاهر الجرجاني أيضا ما يسمي فى الدرس الحديث بنحو النص ، وهو " نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة ، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة ، وتشمل علاقات ما وراء الجملة مستويات ذات طابع تدريجى يبدأ من علاقات ما بين الجمل، ثم الفقرة، ثم النص أو الخطاب بتمامه " [3] وهذا البحث محاولة لسرد عناصر النظرية اللغوية العربية من خلال المقارنة بين ثلاث النظريات(النظم وتضافر القرائن ونحو النص) التى أرى أنها يمكن أن تمثل بجذورها أركان النظرية اللغوية العربية ،أى أنه بحث فى جذور النظرية اللغوية العربية وعناصر مكوناتها مع مقابلة ذلك بعناصر النظرية الغربية ، وأقول (عناصر)إذ ليس بوسعنا أن نستفيض في شرح النظرية اللغوية العربية من خلال هذه النظريات الثلاث فى بحث موجز ، وليس بمقدورنا عندما نتحدث عن النظرية اللغوية العربية متمثلة فى هذه النظريات الثلاث أن نعزل النظريات عن عوالمها التى أحاطت بها وأثرت فيها ، فكثير من أفكار ومعطيات النظريات الثلاث قد تناولتها جهود علماء العربية الأفذاذ فقد تحدث ابن جنى (٣٩٢)عن العلامة اللغوية وفكرة الاتصال (التداولية) عندما حد اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [4] ومن قبله تحدث الجاحظ (٢٥٥)عن إشكالية اللفظ والمعني في معرض حديثه عن البيان فى سفره (البيان والتبيين)[5] " فقد تكون النظرية إنتاج مجموعة عقول أو جيل واحد من العقول ، وقد تكون أيضا

(١)اللغة العربية معناها ومبناها ١٨ .
(٢)اللغة العربية معناها ومبناها ١٠ .
(٣) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص :للدكتور سعد مصلوح ٤٠٧ .
(٤) الخصائص ١/ ٤٤ .
(٥) انظر البيان والتبيين ١/ ٦٠ .

إنتاج مجموعة عقول تنتمي لعدد من الأجيال "[1] إلا أن عبد القاهر الجرجانى هو أول من عكف على تطوير نظرية لغوية شاملة حيث حدد مجموعة القوانين والقواعد التى ينبنى عليها موضوع النظم والتعليق .

جذور النظرية :

لم يكن عبد القاهر الجرجانى بديع أفكاره ، ذلك أنه لم ينشئ أفكاره من عدم "لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقيا ورأسيا "[2] هذه النظرية تضاهي بحق ما وصل إليه علم اللغة الحديث في الغرب بل يمكن القول إن نظرية النظم تعد جذراً أو أساساً لنظريتى القرائن ونحو النص ولكن من أين استقى الجرجانى مادة هذه النظرية؟،إن أقدم نص عُثر عليه في كتب العربية يتحدث عن النظم يرجع إلى ابن المقفع ، يقول فيه " فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولا بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد يا قوتا وزبرجدا ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه " [3] ،بهذا يكون ابن المقفع قد تحدث في وقت مبكر عن النظم وإن كان معنى النظم عنده يختلف عن النظم عند عبد القاهر الجرجانى ، ولعل الجاحظ عندما تحدث عن عملية الاتصال (التداولية) قد تطرق إلى ركن مهم من أركان هذه النظرية ، "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة فى أذهانهم والمتخلجة فى نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية محجوبة مكنونة وموجودة فى معنى معدومة لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها " [4] فبالاتصال والإخبار والاستعمال تحيا المعانى المستورة والأفكار المعدومة ،وفى كتاب الحيوان تطرق إلى ركن مهم آخر من أركان النظرية اللغوية العربية وهو النظم يقول " إن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى

(١) المرايا المقعرة ١٩٨ .
(٢) المرايا المقعرة ٢٣٥ .
(٣) عبد القاهر الجرجانى بلاغته ونقده : أحمد مطلوب الكويت وكالة المطبوعات ١٩٧٣ ص ٥٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ /٦٠ .

والبدوي والقروي والمدني إنما الشأن في إقامة الـــوزن ، وتخـير اللفـظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك " [١] والحـق أن بعض رجال البيان والبلاغة العرب أخذوا المعنى السطحي الظاهر لمقولة الجاحظ باعتباره تركيزاً على اللفظ دون المعنى ، ومن هـؤلاء أبـو هـلال العسكري في كتابه (الصناعتين)[٢] يقول"ليس الشأن فى إيراد المعـاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمى"[٣] والصواب أن الجاحظ عندما يتحدث عـن اللفظ في كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) "لا يقصد اللفظ المفرد بل مـا ينتظم بالألفاظ من عبارات "[٤] وليس أدل على ذلك من ذكره لفظة (السـبك) قاصداً بها انتظام الألفاظ في عبارات ، أى أن الجاحظ يتحدث فـي الفقـرة السابقة عن النظم لا عن ثنائية اللفظ والمعنى ، وإنما يقصد بلفظ (المعـاني) عملية الاتصال التي يعرفها العربي والعجمى والبدوي والمدني والتى يمكـن أن يعبـر عنها بوسائل أخرى تتمثل في العقد أو الإشارة أو الخط [٥].

ولعل أقرب الكتب التى فتحت المجال لعبد القاهر في النظم كتاب أبـى عبد الله محمد بن زيد الواسطى (٣٠٦) المسمى (إعجاز القرآن في نظمـه وتأليفه)، فالعنوان يشير إلى أن موضوع الكتـاب هـو خصـائص النظـم القرآني التى تظهر جانب الإعجاز فيه ، كما أن عبد القاهر الجرجـانى قـد شرح هذا الكتاب شرحين أحدهما صغير والآخر كبير فلولا أن الشيخ وجـد في الكتاب ما يوافق نظمه ما شرحه مرتين[٦] ،ويفاجئنا أحمد بن محمد بـن إبراهيم الخطابي (٣٨٨) بنص " يؤكد أن كل أفكار عبد القاهر الجرجانى لم تكن جديدة بالكلية فقد كان اجتهاد النحويين والبلغاء قد وصل إلـى مرحلـة تطوير نظرية لغوية تكاد تكون كاملة " [٧] ، يقول الخطـابي متحدثـاً عـن إعجاز القرآن " إنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمـور ثلاثـة منـها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التـى هـي ظـروف المعاني والحوامل لها ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشـياء المحمولـة

---

(١) الحيوان ٣/ ١٣١ -١٣٢ .
(٢)انظر : المرايا المقعرة ٢٧٦ .
(٣) كتاب الصناعتين ٧١ .
(٤) اللفظ والمعنى فى البيان العربى : محمد عابد الجابرى ٣٨ .
(٥) انظر البيان والتبيين ١ /٦١ .
(٦)انظر نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر والنقد الغربى الحديث للدكتـور محمـد نايل ١٤ .
(٧) المرايا المقعرة ٢٣٣ .

على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ،وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم "[1] ، يتحدث الخطابى فى هذا النص عن اللغة بوصفها نظام علامات وجمهرة من العلاقات تتمثل فى النظوم التى تأتلف ويرتبط بعضها ببعض ، ويلخص الخطابى فكره اللغوي بإيجاز شديد فى الجزء الأخير من هذا النص عندما يذكر أن الكلام يقوم بثلاثة أشياء : لفظ حامل ،ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم ،ويتقارب فكر القاضى عبد الجبار (٤١٥) فى حديثه عن مفهوم الضم مع فكر عبد القاهر الجرجانى تقارباً جعل الدكتور عبد العزيز حمودة يصف هذا التقارب بأنه وصل إلى درجة تدفع البعض إلى إرجاع فضل نظرية النظم إلى عبد الجبار وليس إلى عبد القاهر [2] يقول القاضى عبد الجبار :"اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع "[3] .

يوضح عبد الجبار مفهوم الضم بأن الكلمة تدل على مدلول داخل التركيب أو في بنية الكلام لكنها حال إفرادها خارج التركيب لا تدل على شيء ، إذ تحقق العلامة اللغوية (اللفظ أو الكلمة) معنى مرتبطا بعلاقات البنى اللغوية ، والحركات الإعرابية هي التي تحدد هذا المعنى ، " إن عبد الجبار يعطى النحو دوراً يمهد للدور الأكبر الذي سيعطيه له عبد القاهر في النظم . المهم أننا نتحدث عن نظم قائم على شبكة من العلاقات تتحكم فيها قواعد النحو لتحقيق الدلالة "[4] وإذ أولى كل من عبد الجبار والجرجانى دوراً كبيراً للنحو فى الضم والنظم فإنه يمكن أن نعتبر كتاب سيبويه في النحو جذراً أصيلاً من جذور نظرية النظم أيضاً.

أما عن القرائن فإن نظرية النظم تعد جذرا استقى منه الدكتور تمام حسان أصول فكرته،وقد اعترف الدكتور تمام بفضل آراء عبد القاهر وأفكاره في مقدمة كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) حين قال: " لما ظهر

(١)بيان إعجاز القرآن ، ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبد القاهر ٢٦- ٢٧ .
(٢) المرايا المقعرة ٢٣٤ .
(٣) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، للقاضى عبد الجبار ١٦ /١٩٩ .
(٤) المرايا المقعرة ٢٣٥ .

الاتجاه البلاغى إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعلامة عبد القاهر الجرجانى الذى أعترف لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل "[١] .

كما أن لفظة (القرائن) أو (قرينة) جاءت فى مواضع كثيرة فى كتب تراثنا النحوى ، أهمها ما جاء فى حاشية العليمى على التصريح أن أهم قرائن منع اللبس القرينة اللفظية نحو ضرب زيد عمراً، وقتلت سلمى عيسى والمعنوية كأرضعت الصغرى الكبرى ، وأكل الكمثرى موسى [٢] ، وربما كان الانطلاق الحقيقى لفكرة الدكتور تمام من هذا الموضع حيث قسم الدكتور تمام حسان فيما بعد القرائن قسمين رئيسين : قسم للقرائن اللفظية وآخر للقرائن المعنوية [٣] وإذا كان عبد القاهر الجرجانى هو أول من حاول – بفكر منظم – الاهتمام بالعلاقات ودورها فى بناء الجملة فيما سماه بنظرية النظم إلا أنه لم يذكر لفظة (القرينة) صراحة فى نصوصه، أما الدكتور تمام حسان فهو الذي وضع آلية واضحة لدراسة النحو العربى فى إطار فكرة (تضافر القرائن)، هذا وقد أفرد العالم اللغوى أبو زيد النحوى (سعيد بن أوس الأنصارى) كتاباً سماه (القرائن) [٤] وهو من الكتب التي فقدت[٥] ، و يتضح من عنوان هذا الكتاب أنه يعنى بالقرائن .

ولم يغفل الدكتور تمام اهتمام الدراسات اللغوية الحديثة بدراسة المعنى وأن المعنى فى هذه الدراسات صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية [٦] ، أى أن الدكتور تمام حسان أفاد من ثلاثة جذور انبنت عليها أفكاره عن تضافر القرائن هى : التراث النحوى واللغوى العربى الذى ورد فيه استخدام مصطلح (القرينة) أو (القرائن)، بالإضافة إلى إلمامه بهذا التراث،ونظرية النظم لعبد القاهرالجرجانى بجذورها ومنابع أفكارها ،وعلم اللغة الحديث فى الغرب بدءاً من أفكار دى سوسير ومحاضراته فى اللغة وانتهاءً إلى علم النص .

وعن (نحو النص) فقد بدأت إرهاصات هذا العلم على يد العالم اللغوي (هاريس) فى بداية النصف الثاني من القرن العشرين ، ثم تطورت

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٧-١٨ .
(٢) انظر حاشية العليمى على التصريح ١ / ٢٨١ .
(٣) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ١٩٤ .
(٤)انظر الفهرست لابن النديم ٨٤ .
(٥) انظر : تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان ١٤٦/٢ .
(٦) انظر اللغة العربية مَعْناها ومبناها ٢٨ .

الدراسات النصية على يد العالم الهولندي (فان دايك) بعد عقدين من أفكار هاريس عن النص ويعد فان دايك المؤسس الأول لعلم النص أو نحو النص حيث بدأ "ببيان أوجه عدم كفاية نحو الجملة لوصف ظواهر تتجاوز حدود الجملة ، غير أن ذلك لا يعنى رفض مقولات نحو الجملة أو التقليل من قيمتها أو التشكيك فى صحتها بل إن الأمر بالنسبة له ولغيره من علماء النص يمكن أن يتحدد فى أنه قد تحتم بعد إدخال عناصر دلالية وتداولية إلى الوصف والتحليل اللغويين "[١] ،حتى أصبح نحو النص الذى وُلد فى عباءة علم النص حقيقة راسخة على يد (روبرت دى بوجراند) و(دريسلر) فى الثمانينات من القرن المنصرم [٢]، حيث حددا المعايير السبعة التى ينضبط من خلالها النص ، ويتأكد دور الربط من خلالها لتحقيق ما يطلق عليه (النصية)، وهذه المعايير هى : الربط والتماسك الدلالى والقصدية والمقبولية والإخبارية (الإعلام) والموقفية والتناص ،ولم يقصد دى بوجراند ودريسلرضرورة تحقق هذه المعايير السبعة فى كل نص ،وإنما يتحقق الاكتمال النصى بوجودها ،وأحيانا تتشكل نصوص بأقل قدر منها [٣] وكان الدكتور سعد مصلوح من أوائل الذين نقلوا الفكر الغربي عن نحو النص إلى العربية وذلك فى مقالة كتبها في الكتاب التذكاري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكراه الثانية بكلية الآداب جامعة الكويت عام (١٩٨٩-١٩٩٠) بعنوان " العربية من نحو الجملة إلى نحو النص " ومن بعده أصدر محمد خطابي كتابه (لسانيات النص –مدخل إلى انسجام الخطاب) ضمن مطبوعات المركز الثقافي العربي عام ١٩٩١ ، ثم أصدر الدكتور صلاح فضل كتابه (بلاغة الخطاب وعلم النص) ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام ١٩٩٢ ،إلا أن كتاب (علم لغة النص * المفاهيم والاتجاهات) للدكتور سعيد حسن بحيرى الذي نُشر عام ١٩٩٣ضمن منشورات مكتبة الأنجلو المصرية يعد أول كتاب مفصل نقل علم اللغة النصي إلى العربية نقلا وافيا ،ثم توالت بعدُ المؤلفات حيث ترجم الدكتور تمام حسان كتاب (النص والخطاب والإجراء) لدى بوجراند ونشره عام ١٩٩٨ عن عالم الكتب بالقاهرة .

---

(١) علم لغة النص ، للدكتور سعيد حسن بحيرى ٢١٠ .
(٢) انظر نحو النص اتجاه جديد فى دراسة النحو العربى ، للدكتور أحمد عفيفى ٢٧٩.
(٣) انظر علم لغة النص ، للدكتور سعيد حسن بحيرى ١٤٢ .

ويمكن القول إن نظرية النظم هي المعين الذي استقى منه علماء النص أفكارهم حيث تتقارب أفكار النظريتين إلى الحد الذي يصعب معه تحديد أي النظريتين أفادت من أفكار الأخرى ، وعندما يصل التقارب إلى هذا الحد يكون التاريخ حدا ً فاصلا لتحديد أى النظريتين أفادت من الأخرى ، وبالاحتكام إلى فكرة الزمن نجد أن نظرية النظم قد سبقت نحو النص بتسعة قرون تقريباً حيث اكتملت أركان نظرية النظم على يد كل من القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجانى في القرن الخامس الهجري في حين ظهرت أفكار نظرية النص في نهايات القرن الرابع عشر الهجري (منتصف القرن العشرين ميلاديا) ، هذا وقد ساعدت كثرة التأليف وازدهار حركة الترجمة والنقل بدءاً من العصر العباسى إلى الآن – مع مراعاة فترات الانحطاط عربيا وأجنبيا – على تأثر الأفكار بعضها ببعض ، ولا نستبعد أن يكون علماء الغرب قد أفادوا من كتاب دلائل الإعجاز إما بترجمته إلى لغاتهم أو ربما ساعدت البعثات العلمية العربية في منتصف القرن التاسع عشر على نقل التراث اللغوي العربي إلى الغرب ومن ثم بنى الغرب أفكارهم على هذا التراث .

وهذا لا يعنى أن الغرب لم يضف جديداً في تطور النظرية ،إنهم فعلوا الخطوة التى كان على المفكرين العرب أن يفعلوها في القرن السادس الهجري لإكمال جهود عبد الجبار والجرجانى ،فقدموا(أي الغرب) للعالم نظرية لغوية مكتملة الأركان منظمة الأفكار .

هذا عن جذور (نحو النص) من الوجهة النظرية ، أما عن جذور الفكرة تطبيقيا فإن تفسير سور القرآن الكريم يعد تطبيقاً لفكرة نحو النص فقد درس علماء التفسير النص القرآني وطبقوا معايير ضبط النص دون أن يعرفوا فكرة المعايير، فدرسوا الربط والتماسك الدلالى ودرسوا الإخبار أو الإعلام والقصد إبان تحدثهم عن أهداف النص القرآنى وما يستفاد من السور ، ودرسوا معيار المقامية حين تحدثوا عن أسباب النزول ودرسوا التناص (القرآن يفسر بعضه بعضا) ، والمقبولية التى تتمثل فى مراعاة أحوال المخاطبين، بل إن علماء التفسير جعلوا كل سورة نصا مستقلا ، وكل نص من هذه النصوص ينضوى ضمن نص أكبرهو النص القرآنى بجميع سوره وثمة محاولة أجراها حازم القرطاجنى فى كتابه (منهاج

البلغاء وسراج الأدباء)[1] ، فى تحليله لقصيدة المتنبى (أغالب فيك الشـــوق والشوق أغلب) حيث قسم القصيدة إلى أجزاء وسمى كل قسم فصلا ، ثـم أشار إلى طريقة وصل الفصول بعضها ببعض ، إذ يشترط أن يكون معنـــي كل فصل تابعاً لمعنى سابقه ، ثم أورد القصيدة كاملة محلـــلاً العلاقـــة بيـــن أجزائها ووحداتها المكونة لها على هذا الأساس الدلالي الذي لا يقف عنـــد حدود التعالق النحوي بين الجملتين [2] .

(1) انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجنى ٢٩٨ .
(٢) انظر بلاغة الخطاب وعلم النص ، للدكتور صلاح فضل ٢٦٤ .

مكونـــات النظرية

اللغة نظام علامات وشبكة علاقات

(١) نظام العلامات

اللغة – عند سوسير– نظام من العلامات ولا تعد الأصوات لغة إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها ،وإلا فهي مجرد أصوات ،ولكي تعبر الأصوات عن الأفكار أو تنقلها ينبغي لها أن تكون جزءاً من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار ، وبعبارة أخرى ينبغى للأصوات لكى تعبر عن الأفكارأن تكون جزءاً من نظام من العلامات ، والعلامة هى اتحاد بين شكل يدل يسميه سوسير الدال وفكرة تدل عليها تسمى المدلول [١] وقد جعل سوسير من العلاقات بين البنى اللغوية مدخلا للتفكير فى طريقة الوصول إلى حقائق الأشياء من خلال منظور يحدد ما بينها من علاقات [٢] وقد لاحظ نوعين من العلاقات اللغوية ، علاقات رأسية تصريفية تقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر فى النص ، وأخرى أفقية تركيبية تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات المتجاورة فى الجملة [٣] وعلى هذه المقولات بنى علماء اللغة فى الغرب أفكارهم حتى طوروا نظرية النص ،والحق أن هذه الأفكار درسها علماء اللغة العرب منذ عشرة قرون تقريبا فقد أفرد ابن جنى (٣٩٢) باباً فى كتابه (الخصائص) للقول على اللغة وما هى ، حد فيه اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [٤] ،وعلى الرغم من قدم هذا التعريف وبساطته إلا أنه يحمل بين طياته ثلاث أفكار من أفكار علم اللغة الحديث فى الغرب حيث تعبر كلمة (أصوات) عن فكرة العلامة ومفهومها ، فى حين تعبر مفردات النص الأخرى عن فكرتى الاتصال (التداولية) والقصد ،أما عن اعتباطية العلامة التى يظن الغرب أن لسوسير قصب السبق فيها فقد تحدث ابن جنى (٣٩٢) فى كتابه الخصائص عن هذه الفكرة أثناء حديثه عن أصل اللغة أإلهام هى أم اصطلاح [٥] فقد تحدث عن المواضعة اللغوية وأن

---

(١) انظر فرديناندى سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) لجوناثان كللر ،ترجمة عزالدين إسماعيل ٧٢ .
(٢) انظر المرايا المقعرة ، للدكتور عبد العزيز حمودة ٢٠٣ .
(٣) انظر مبادئ علم الأسلوب العربى ، لشكرى عياد٤٩ .
(٤) الخصائص ٤٤/١ .
(٥) انظر الخصائص ٥٤/١ .

أصل اللغة لابد فيه من المواضعة : يقول " ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلي غيرها فتقول الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه مرد والذى اسمه رأس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام "[1] فقد فطن علماء العربية إلى مفهوم العلامة اللغوية وفكرة اعتباطية العلامة وأن اللغة نشاط اجتماعى قبل سوسير بعشرة قرون تقريبا ، وفطنوا أيضا إلى العلاقات الأفقية والعلاقات الرأسية حيث أورد سيبويه لفظ (المعاقبة) فى كتابه قاصداً به العلاقة الرأسية ،يقول"وكأنه شى ء يصير بدلاً من شى ء كالمعاقبة " [2] ليس ذلك فحسب بل أفرد ابن جنى كتابا فى هذا الموضوع سماه (التعاقب) وهذا الكتاب مفقود حتى الآن وقد أشار إليه فى كتابه(الخصائص) بقوله " وقد ذكرنا فى كتابنا الموسوم بالتعاقب من هذا النحو ما فيه كاف بإذن الله تعالى " [3] ، إلا أن بعض المفكرين يستخدمون مصطلح التعاقب قاصدين به التتابع الأفقى لا الاستبدال الرأسى ومن هؤلاء الدكتورعبد العزيز حمودة حيث يقول " العلاقة الأفقية تربط بين المفردات الواردة داخل البنية اللغوية أو الجملة على أساس التعاقب "[4] ويقصد بالتعاقب التتابع أو التوالى أفقيا ، والحق أن معظم علماء العربية الأوائل أمثال سيبويه وابن جنى وابن يعيش[5] والزجاجى [6] يستخدمون التعاقب أو المعاقبة بمعنى الاستبدال الرأسى لا بمعنى التتابع الأفقى .

هكذا يمكن القول إن الأفكار اللغوية عن نظام اللغة وعن فكرة العلامة ومفهومها واعتباطيتها ، والمحورين الأفقى التركيبى والرأسى التعاقبى الاستبدالى كانت متفرقة فيما قبل عبد القاهر الجرجانى الذى رتب هذه الأفكار ثم بنى عليها تفكيره اللغوى ، فنراه يتحدث عن المحورين الأفقى والرأسى حيث يقول " إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد بذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى

(١) الخصائص ٥٤/١ .
(٢) كتاب سيبويه ٣٨/٢ .
(٣) الخصائص ٢٣١/١ .
(٤) المرايا المقعرة ٢٤٧ .
(٥) جاء فى شرح المفصل لابن يعيش ٢٨٦/٦ قوله (الألف واللام تعاقب الإضافة) .
(٦) جاء فى الإيضاح (ص ٧٠) : معاقبة الحركة للسكون .

موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخـــر" [1] فقولـه (ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها) دلالة على المحور الأفقى الـتركيبى ، وحينما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل ســياق وتثقل على السامع فى سياق آخر دلالة على المحور الرأســى الا ســتبدالى فالاستحسان والوحشة يرتبطان بممارسة الاختيار ،والاختيار أساس علاقــة الاستبدال [2] ويطالعنا عبد القاهر الجرجانى فــى مقدمــات كتابــه (دلائــل الإعجاز) بنص يشرح فيه نظريته اللغوية يقول فيه " ومما يجــب إحكامــه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة وذلــك أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى .. فلو أن واضع اللغة كان قد قال : (ربض) مكان (ضرب) لما كان فــى ذلــك مايؤدى إلى فساد ، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفــى فــى نظمها آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ،فــهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ،وليس هو النظم الذى معنــاه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، وكذلك كان عندهم نظيراً للنســج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشــبه ذلــك ممــايوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكونَ لو ضِعَ كُلٌ حيثُ وُضِعَ علــة " تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح " [3] ، يشــتمل هذا النص على ثلاثة أركان من أركان النظرية اللغوية العربية الأول : اللغــة نظام علامات ويتضح ذلك فى قوله (حروف منظومة) والثــانى: اعتباطيــة العلامة ويتمثل ذلك فى قوله (فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكــان (ضرب) لما كان فى ذلك مايؤدى إلى فساد)، والركن الثــالث الأهــم فــى النظرية هو النظم أو العلاقات التى يُقتفى فى نظمها آثارالمعــانى وترتيبــها حسب ترتيب المعانى فى النفس وتتجلى عبقرية الجرجانى فى قوله (ومــا يجب إحكامه الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة) حيــث قصــد بكلمة (منظومة) الأولى نظام العلامات فى حين قصد بالثانية النظم، وثمــة فرق بين النظم والنظام ذلك أن النظم ركن أو فكرة من أفكار النظام وهذا مــا توضحه فكرة النظام عند الدكتور تمام حسان "فاللغة عنده – منظمة عرفيــة للرمز إلى نشاط المجتمع وهذه المنظمة تشتمل على عدد مــن الأنظمــة –

(١) دلائل الإعجاز ٤٨ .
(٢) انظر المرايا المقعرة ٢٥٦ .
(٣) دلائل الإعجاز ٥٠-٥١ .

النظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى – يتألف كل واحد منها من مجموعة من المعانى تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المبانى المعبرة عن هذه المعانى ،ثم من طائفة من العلاقات التى تربط ربطا إيجابيا والفروق (القيم الخلافية) التى تربط ربطا سلبيا بإيجاد المقابلات ذات الفائدة – بين أفراد كل من مجموعة المعانى أو مجموعة المبانى "[1]، ففكرة النظم التى يقصدها الجرجانى تندرج عند الدكتور تمام حسان ضمن فكرة النظام النحوى الذى يعنى بالعلاقات بين التراكيب ، على الرغم من أن عبد القاهر ربط المعنى بالتركيب ربطاً وثيقاً بخلاف الدكتور تمام الذي جعل للدلالة مستوى خاصاً به ، ويوضح الدكتور تمام فكرة العلامة اللغوية بقوله عن النظام إنه (يتألف من مجموعة من المعانى تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المبانى المعبرةعن هذه المعانى) ،هذا وقد وضع الدكتور تمام حسان ضابطا للنظام فى كتابه (الأصول) بأنه " تتشابك فيه العلاقات العضوية حتى يصبح بهذا التشابك بنية جامعة مانعة لايستطاع نفى شى ء منها ولا إضافة شىء إليها " [2] وعن العلاقة بين الرمز والمعني فقد قسم الدكتور تمام حسان فى معرض حديثه عن الرموز اللغوية فى كتاب (اللغة بين المعيارية والوصفية) العلاقة بين الرموز اللغوية ومعانيها ثلاثة أقسام : الأول هو قسم العلاقة الطبيعية ومثل لها بأن الإحساس بتقلص المعدة يُعلم بالجوع فالرمز هو الإحساس بتقلص المعدة والمعنى هو الجوع ،والثانى هو قسم العلاقة المنطقية ،فعند النظر إلى السحاب مثلاً إن كانت داكنة توقعنا المطر ، وإن كانت بيضاء صافية كان لذلك معنى آخر ،أما النوع الثالث من أنواع العلاقة بين الرمز والمعنى فهو العلاقة العرفية (الاعتباطية) وهى من وجهة نظر الدكتور تمام حسان أهم من سابقتيها لوجودها فى الدلالات اللغوية فالعلاقة بين الاسم والمسمى غير طبيعية ولا منطقية ولكنها عرفية ونتيجة من نتائج الوضع[3] هذا ولم يفرط علماء النص فى الحديث عن نظام العلامات ومفهوم العلامة واعتباطيتها مكتفين بما قدمه سوسير حيث اعتبروا أنفسهم امتداداً لنظريته اللغوية فبنوا أفكارهم على فكره وشحذوا هممهم فى سبر أغوار النص واكتشاف كنهه .

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٤ .
(٢) الأصول ٥٣ .
(٣) انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ١١٠- ١١١ .

(ب) شبكة العلاقات :

لقد أفرط عبد القاهر في شرح فكرة النظم في كتاب دلائل الإعجاز إلى الحد الذي يجعل القارئ يظن أنه كتاب فى النظم ليس غير والحق أنه كتاب في بيان إعجاز القرآن ، وأفرط علماء العربية من بعده في شرح هذه الفكرة فأفردوا مؤلفات كثيرة تتناول فكرة النظم وتشرح فكر عبد القاهر اللغوي إلا أن هؤلاء أغفلوا جانبا مهماً وهو أن عبد القاهر عندما يذكر النظم تارة يقصد به النظم من حيث هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتارة يقصد به التعليق ، والحق أن فكرة التعليق هي أهم ما في فكرة النظم فهي تهدف إلى إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة القرائن أو ما يسمى عند علماء النص معايير ضبط النص أو معايير النصية.

وقد فطن عبد القاهر إلى أهمية فكرة التعليق فبدأ بالحديث عن نظم الكلام بحسب المعاني ثم أتبع ذلك بنظم الكلام ومكان النحو منه ويتضح ذلك من خلال ثلاثة نصوص أسوقها مرتبة ترتيب ورودها في كتاب دلائل الإعجاز،الأول يقول فيه" ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالى الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وأنه نظير الصياغة "[1] ، ويقول في النص الثاني "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك "[2] وفى النص الثالث يبين عبد القاهر مكان النحو من نظريته فيقول " ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه " [3] ، أي أن عبد القاهر يولى التعليق عناية واهتماماً ، ليس معنى ذلك أنه يغفل دور نظم الألفاظ وتتابعها في الكلام ، إن المسألة تشبه إلى حد كبير ما توصل إليه العلماء من أن الاهتمام

---

(١) دلائل الإعجاز ٥١ .
(٢) دلائل الإعجاز ٥٤.
(٣) دلائل الإعجاز ٦٩ – ٧٠ .

بالمعاني لا يقلل من قيمة الألفاظ وكذلك الاهتمام بالتعليق أو العلاقات لا يقلل من قيمة نظم الألفاظ وتواليها في الكلام .

إن فكرة النظم عند الجرجانى ترتكز على عنصرين أساسيين هما التعليق ومقتضيات علم النحو ، وتعليق الكلام من أجل بناء بعضه على بعض يقتضي إدراك جميع أصناف العلائق التي تحصل بين المكونات المجردة للغة [١] .

وقد شرح عبد القاهر جوهر فكرة النظم في نص اشتمل على بعض عناصر مكونات النظرية اللغوية عنده ، يقول فيه "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهيا واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة ... وهل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ،وتلك غريبة وحشية ؟ ...وهل نجد أحد ا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها "[٢] فاللفظة المفردة في رأى عبد القاهر علامة تدل على شي ء أو فكرة ما ، ولكنها لا تحدث معنى مفيداً إلا فى بناء لغوى . أي أن النظم لا يتحقق في الكلمة " حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض "[٣] .

والواقع أن ما يقوله الجرجانى هنا ينم عن وعى متقدم فالقول إن الكل هو الذي يحدد قيمة الجزء يقع في صلب نظرية النقد الجديد وهو الذي يبنى عليه علماء النص أفكارهم [٤] .

وفكرة تضافر القرائن تشبه إلى حد كبير فكرة النظم ، وإن لفظة (تضافر) تعادل (الضم) أو(النظم) إلا أن الدكتور تمام حسان استطاع أن يفيد من فكرة توظيف المصطلح في حين تناول الجرجانى فكرته فى إطار سرد شامل للفكرة فنراه " يعود مرات ومرات إلى تأكيد أهمية العلاقات التي تمكن الألفاظ مجتمعة من

(١) انظر التلقى والتواصل الأدبى للدكتور أحمد المنادى ١١٨ .
(٢) دلائل الإعجاز ٤٧ .
(٣) دلائل الإعجاز ٥٤ .
(٤) انظر المرايا المقعرة ٢٣٨ .

تحقيق الدلالة " [١] وقد قسم الدكتور تمام حسان قرائن التعليق [٢] قسمين كبيرين : حالية تعرف من المقام ومقالية تعرف من النص أو المقال أو بمعنى أدق ترتبط بالنص أو المقال ، والقرائن المقالية تنقسم قسمين كبيرين أيضاً قسم للقرائن المعنوية وآخر للقرائن اللفظية ، ويندرج تحت قسم القرائن المعنوية مجموعة من القرائن هى الإسناد و التخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة ، ويندرج تحت قسم القرائن اللفظية مجموعة من القرائن هى الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم ، وتشمل قرينة الإسناد المسند إليه والمسند ، فى حين تشمل قرينة التخصيص التعدية والغائية والمعية والظرفية ، والنسبة تضم معانى الحروف والإضافة ، أما التبعية فتشمل النعت والعطف والتوكيد والبدل [٣] وكما أفاد الدكتور تمام من إلمامه بالتراث فاختار لنظريته لفظة القرائن ، أفاد كذلك من هذا التراث فى تقسيمه لأنواع القرائن فاللفظ والمعنى والإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة والإعراب والتضام والربط والأداة والتنغيم والتعدية والغائية والمعية كلها مصطلحات تراثية ، إلا أن الدكتور تمام استطاع توظيف هذه المصطلحات ثم قسمها تقسيما واعياً مطوراً نظريته فى تضافر القرائن معتمداً على فكرة النظم عند عبد القاهر وإلمامه بالتراث اللغوى العربى ، وضرب مثلا لتطبيق نظريته بقوله : ضرب زيد عمراً وراح يشرح كيفية تحليل هذه الجملة البسيطة من خلال فكرة تضافر القرائن فقال " وإذا طلب إلينا أن نعرب جملة مثل : (ضرب زيد عمراً) نظرنا إلى الكلمة الأولى (ضرب) وجدناها قد جاءت على صيغة (فعل)ونحن نعلم أن هذه الصيغة تدل على الفعل الماضي فهى تندرج تحت قسم أكبر من أقسام الكلم يسمى (الفعل) ومن هنا نبادر إلى القول بأن (ضرب فعل ماض) ثم ننظر بعد ذلك فى (زيد) فنلاحظ أنه ينتمى إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة) وأنه مرفوع (قرينة العلامة الإعرابية) وأن العلاقة بينه وبين الفعل الماض علاقة إسناد (قرينة تعليق معنوية) وأن رتبته التأخر (قرينة الرتبة) وأن الفعل معه مبنى للمعلوم (قرينة الصيغة) ، والفعل مسند إلى المفرد الغائب (قرينة المطابقة) وبسبب كل هذه القرائن نصل إلى

---

(١) المرايا المقعرة ٢٣٨ .

(٢) قرائن التعليق أحد ثلاثة أقسام كبرى هى القرائن المادية والقرائن العقلية وقرائن التعليق ، انظر اللغة العربية معناها ومبناها ١٩٠ .

(٣) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ١٩٠ .

أن (زيد)هو الفاعل ، ثم ننظر بعد ذلك فى (عمراً) ونلاحظ أنه ينتمى إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة) ، وأنه منصوب (قرينة العلامة الإعرابية) وأن العلاقة بينه وبين الفعل علاقة (تعدية) ، وأن رتبته من كل من الفعل والفاعل هى رتبة التأخر (قرينة الرتبة) وبسب هذه القرائن نسارع إلى القول بأن (عمراً) مفعول به " [1]،وقد لاقى الدكتور تمام نقداً شديداً إبان ظهور الفكرة لأول مرة عام ١٩٧٣ ،ومن النقد الذى وجه إليه أن تطبيقه لفكرته كان تطبيقا على مستوى الجملة لا على مستوى النص إلى أن ألف الدكتور تمام كتابه (البيان فى روائع القرآن) فطبق فكرة تضافر القرائن تطبيقا موسعاً فى هذا الكتاب الذي يعد بحق واحداً من أفضل الكتب التى درست النص القرآنى دراسة نصية موسعة على المستويين اللغوي والبلاغى .

وليس معنى ذلك النقد التقليل من قيمة الجملة فلولا الجملة لما كان النص ، ولكى يفهم النص لابد من تفكيكه إلى وحداته المكونة له (الجمل) ، ولكى يفكك النص لابد من الاعتماد على إدراك بنيته العليا مما يعد شرطاً ضروريا لتحليل علاقاته وضبط خواصه ، وإذا كان النص يتكون عادة من كلمات وجمل ، فإن أجزاءه الطبيعية ليست مؤلفة من تلك الكلمات أو مركبة من مجموعة من الجمل ؛ لأن الوقوف عند هذه الوحدات بمستواها اللغوى الصرف لن يسهم فى الكشف عن الخواص النوعية البنيوية المميزة للنص[2]وبإجراء مقارنة بين الجملة التى طبق عليها الدكتور تمام حسان فكرته وشرح الشيخ عبد القاهر لقوله تعالى{واشتعل الرأس شيبا}[3] نفهم كيف أفاد الدكتور تمام حسان من فكر عبد القاهر؟ ، يقول الجرجانى إن الشرف فى الآية لايمكن نسبته إلى الاستعارة " ولكن لأن يُسلك بالكلم طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع ما يسند إليه ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوباً بعده مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك إنما كان من أجل هذا الثانى ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ... وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب فى المعنى وإن كان هو للرأس فى اللفظ ... واعلم أن فى الآية شيئاً آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة وهو أحد

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨١ –١٨٢ .
(٢) انظر بلاغة الخطاب وعلم النص ، للدكتور صلاح فضل ٢٥٣ .
(٣) مريم {٤}

ما أوجب المزية "[1] ففى نص الجرجانى ألفاظ هى عند الدكتور تمام حسان قرائن مثل الإسناد والنسبة والملابسة والاتصال (الربط) . وقد أدرك الدكتور تمام حسان أهمية التعليق مثلما أدرك عبد القاهر ذلك من قبل يقول " ولا شك أن أصعب هذه القرائن من حيث إمكان الكشف عنها هى قرينة التعليق لأنها قرينة معنوية خالصة تحتاج إلى تأمل " [2] وليس من الضرورى أن تتحقق جميع القرائن فى النص المراد تحليله وإنما يغنى بعضها عن بعض عند أمن اللبس " فالقرائن تتضافر على إيضاح المعنى الوظيفى النحوى ، والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها "[3] ، فكما أن معايير النص ليس من الضرورى أن تتحقق فى كل نص ، وأنه من الممكن أن يتحقق الاكتمال النصى بأقل قدر منها ، فكذلك القرائن يغنى بعضها عن بعض ويمكن فهم النص بأقل قدر منها .

هذا وقد أولى علماء النص عناية كبيرة لفكرة العلاقات ، حيث لجئوا فى تفسيرات النص إلى قواعد دلالية ومنطقية وتداولية إلى جوار القواعد التركيبية وحددوا للنص مهام بعينها لا يمكن أن ينجزها نحو الجملة ، لقد عنى علم اللغة النصى فى دراسته لنحو النص بظواهر تركيبية نصية مختلفة منها : علاقات التماسك النحوى النصى ، وأبنية التطابق والتقابل والتراكيب المحورية والتراكيب التابعة وحالات الحذف والجمل المفسرة ، والتنويعات التركيبية ،وغيرها من الظواهر التركيبية التى تخرج عن إطار الجملة المفردة . والتى لايمكن تفسيرها تفسيراً كاملا ً دقيقا إلا من خلال وحدة النص الكلية [4] .

والصلة بين نحو الجملة ونحو النص وثيقة إلى الحد الذى لم تنجح معه كل محاولات الفصل بينهما ،إلا أن ذلك لايعنى الإخفاق فى توضيح مهام نحو النص حيث يرى (فان دايك) أن مهمة نحو النص هى صياغة قواعد تمكننا من وصف الأبنية وصفاً محكماً متكاملاً[5] ، إن الجملة فى النص ذات دلالة جزئية ولا يمكن أن تتقرر بالتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة فى ذلك التسلسل أو التتابع الجملى ، إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه

(١) دلائل الإعجاز ٨٢ –٨٣ .
(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٢ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٤٠ .
(٤) انظر : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ،للدكتور سعيد حسن بحيرى ١٣١ .
(٥) انظر : علم لغة النص ١٣٢ .

على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء ، فالاعتداد هنا ليس بالامتداد الطولى للنص بل بالأبنية الكبرى المتلاحمة داخليا التى يقدمها النص ولاشك أن الجمل يمكن أن تستقل بدلالاتها الجزئية إذا كان التوجه إلى الحكم على هذه الجزئيات ،ولكن إذا أريد حكم كلى لا يستند إلى أشتات فلا يستقيم ذلك التوجه ، فالنص لا يجيز وجوداً مستقلا لعناصره ، حيث لا تكون القيم الجزئية ذات اعتبار كبير إلا باشتراكها فى القيمة الكبرى المتكونة من ذلك التكوين الأكبر[١] .

وقد حدد كل من بوجراند ودريسلر مفهوم النص بأنه حدث تواصلى يلزم لكونه نصا أن تتوافر له سبعة معايير للنصية هى السبك والحبك والقصد والقبول والإعلام والمقامية والتناص ، أى أن نحو النص يشمل النص وسياقه وظروفه وفضاءاته ومعانيه المتعالقة القبلية والبعدية مراعياً ظروف المتلقى وثقافته وأشياء أخرى كثيرة تحيط بالنص [٢] .

والتحليل النصى يبدأ دائماً من البنية الكبرى وهى تتسم بدرجة قصوى من الانسجام والتماسك ، ويصبح النص متماسكا عندما تقبل كل جملة فيه أن تفسرأو تؤول فى خط داخلى يعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة فى النص ومن هنا فإن مفهوم النص تتحدد خصائصه بفكرة التفسير النسبى أى تفسير بعض أجزائه بالنسبة إلى مجموعها المنتظم كليا [٣] ، وعن طريق مفهوم البنية الكبرى استطاع علماء النص مُقاومة الفكرة الشائعة عن أن التماسك النصى يتحدد فحسب على مستوى علاقات الترابط بين المتتاليات والجمل ،لأن هذا المستوى الأخيرلا يقدم سوى الأبنية الصغرى،وتظل البنية الكبرى هى التمثيل الدلالى الكلى الذى يحدد معنى النص باعتباره عملا كليا فريداً ، وبدون هذه البنية الكبرى والقواعد التى تحكمها يمكن أن ننزلق إلى تصور التماسك النصى على اعتبار أنه مجرد رابط سطحى بين الوحدات الجزئية بينما نجد أن هذه البنية الكبرى لاتؤدى فحسب إلى التماسك الكلى بل تؤدى أيضاً إلى التماسك الجزئى على مستوى الجمل،ومعنى هذا أن تحليل النصوص يعتمد على

(١) انظر : علم لغه النص ١٣٦ .
(٢) انظر : نحو النص اتجاه جديد فى دراسة النحو العربى ، للدكتور أحمد عفيفى ٢٩٤ .
(٣) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ٢٥٥ .

ملاحظة التعالق والترابط بين الأبنية الصغرى والبنية الكبرى الكلية للنص[١] .

وعند إجراء موازنة بين النظريات الثلاث من حيث فكرة العلاقات نجد أن الدكتور تمام حسان قد قسم القرائن المقالية قسمين كبيرين أحدهما للقرائن اللفظية والآخر للقرائن المعنوية ، والحق أن هذين القسمين يعادلان معيارين من معايير النص هما السبك والحبك ، فالقرائن اللفظية من إعراب ورتبة ومطابقة وتضام بالإضافة إلى الأداة والتنغيم تندرج عند علماء النص ضمن معيار السبك ، فى حين تندرج القرائن المعنوية من إسناد وتخصيص ونسبة وتبعية ضمن معيار الحبك ، هذا وقد أدرك كل من الدكتور تمام حسان وأصحاب النص أهمية المقام فى تحديد المعنى أو دلالة النص فأفرد الدكتور تمام حسان قسماً كبيراً قسيماً للقرائن المقالية سماه القرائن الحالية أو المقامية ، وخصص علماء النص للمقامية معياراً منفرداً ضمن معايير النص ، وقد عنى البلاغيون العرب بفكرة المقام حين قالوا : (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبتها مقام) أى أن فكرة المقام عرفها البلاغيون العرب منذ ألف سنة تقريبا ، وهى تضم المتكلم والسامع والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث ، وقد أولى علم اللغة النصى اهتماماً بالتعبير عن هدف النص فيما سُمى بمعيار القصدية الذى فطن إليه الدكتور تمام حسان عندما قال فى تقديم كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) " لابد أن يكون المعنى هو الموضوع الأخص لهذا الكتاب لأن كل دراسة لغوية – لا فى الفصحى فقط بل فى كل لغات العالم – لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة " [٢] ولعله قصد بالمعنى هنا معيار(القصدية) ، ليس ذلك فحسب بل أفرد بحثا موجزاً فى الكتاب نفسه تحت عنوان (غايات الأداء) [٣] قصد منه غايات النصوص وأهدافها ومن غايات الأداء –عنده – التشجيع والمصادقة والتثبيط والشتم والتمنى والترجى واللعن والفخر والتحدى والتحضيض والاستخفاف والتحقير والتعظيم والإخبار وغيرها من الغايات التى يهدف إليها النص [٤] والمقبولية معيار من معايير النصية يتعلق بموقف المتلقى الذي يعطى

(١) انظر بلاغة الخطاب وعلم النص ٢٦٦ .
(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ٩ .
(٣) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٦٣ .
(٤) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٦٤ .

انطباعا عن النص (هل النص متماسك ومقبول لديه أو لا ؟) هـذا المعيـار فطن إليه الدكتور تمام ، يقول " بحسب هذا الفهم الشامل لفكـرة (المقـام) يعتبر النص (المقال)غير منبت عمن ساقه ومن سيق إليـه " [١] وواضـح من نص الدكتور تمام أن فكرة المقام عنده أو (قرينة المقام) فكرة شـاملة تضم ثلاثة معايير من معايير النص هى المقبولية والإخبارية والموقفيـة ، أما معيار التناص الذى يختص بالتعبير عن تبعية النص لنصوص أخـرى أو تداخل النص مع غيره من النصوص فإن الدكتور تمام حسان يرى أن " ذلـك ليس غريبا على الفكر الإسلامى على كل حال فمن العبارات المشهورة فـى عرف المفسرين للنص القرآنى أن القرآن يفسر بعضه بعضـاً وأن السـنة تخصص عموم القرآن وأن الاستشهاد وسيلة مـن وسـائل التوثيـق "[٢]، ويوضح الدكتور تمام حسان فى كتاب(اللغة العربيـة معناهـا ومبناهـا) مفهوم التناص قائلا ً " إن من المقال ما يتصف بصفات معينة أو ما يتوافـر له مزايا معينة تجعله صالحاً للاستحضار فى المقامات التى تشـبه مقامـه الأصلى الذى قيل فيه فيصبح المقال جزءا من المقام الجديـد فيدخـل فـى تحليل هذا المقام الجديد "[٣] .

وقد أجرى الدكتور تمام حسان موازنة بين فكرته عن تضافر القرائـن وفكر الجرجانى عن النظم واصفاً محاولة الجرجانى فى تفسـير العلاقـات السياقية أنها (أذكى محاولة فى تاريخ التراث العربى حتى الآن) [٤] ، وقـد استشهد الدكتور تمام بنصين للجرجانى الأول يقول فيه " وإذ قد عرفـت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ،فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غايـة تقـف عندهـا ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لـها فـى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغـواض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضـها من بعض " [٥] والثاني يعمد إلى أن النظم " ليس شيئا غير توخى معـاني النحو فيما بين الكلم "[٦] ، وقد علق الدكتور تمام علـى ذلـك قـائلا ً إن "

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٥١ .
(٢) البيان فى روائع القرآن ١/ ٤٠٣ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٤٠ .
(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٦ .
(٥) دلائل الإعجاز ٧٤ .
(٦) دلائل الإعجاز ٢٩٣ .

النظم كما فهمه عبد القاهر هو نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم لابناء الكلمات في صورة جملة "[١] ، وعد لفظة (الفروق) التى وردت في النص الأول إشارة ذكية إلى ماسماه القيم الخلافية أو المقابلات بين المعنى والمعنى أو بين المبنى والمبنى ، وأن قول الجرجانى (موقع بعضها من بعض) إشارة إلى ما اشتهر فى عرف النحاة باسم الرتبة ، وأن قوله (استعمال بعضها من بعض) إشارة إلى فكرة التضام [٢] .

وإذا وسعنا دائرة الموازنة بين تضافر القرائن والنظم يمكن القول إن نوعى القرائن اللفظية والمعنوية يعادلان النظم والتعليق على الترتيب فالقرائن اللفظية والنظم يعنيان ببناء الكلمات فى جمل من خلال ترتيب المعانى فى النفس أولا ثم ترتيب الألفاظ فى النطق بحسب ترتيب المعانى فى النفس (السبك) ، والقرائن المعنوية والتعليق يعنيان بإنشاء العلاقات بين المعانى النحوية (الحبك) .

وقد تحدث الجرجانى عن قرينة الإعراب ،وظل يكرر أن ليس النظم إلا توخى معانى النحو ، يقول " وإذا نظرنا فى ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا ً لفعل أو مفعولا ً أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثانى صفة للأول أو تاكيداً له أو بدلا ً منه أو تجى ء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزاً أن تتوخى فى كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما ً أو تمنيا ً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً فى الآخر فتجى ء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى "[٣] ، إن فكرة الإعراب عند الجرجانى ركن مهم من أركان النظم إلا أن هذا الركن يجب أن يفهم أولاً ولكن لايكتفى به في تحليل النصوص ، يقول الجرجانى متحدثا عن الألفاظ " وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم ، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل"[٤] ، ويقول " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها " [٥]

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٦ .
(٢) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ١٨٧ .
(٣) دلائل الإعجاز ٥٤ .
(٤) دلائل الإعجاز ٥٤ :
(٥) دلائل الإعجاز ٣٨ .

، وقد فطن الدكتور تمام أيضاً إلى أهمية هذه القرينة إلا " أن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى فلا قيمة لها بدون تضافر القرائن وهذا القول صادق على كل قرينة أخرى بمفردها سواء أكانت معنوية أم لفظية وبهذا يتضح أن (العامل النحوى) وكل ما أثير حوله من ضجة لم يكن أكثر من مبالغة أدى إليها النظر السطحى والخضوع لتقاليد السلف والأخذ بأقوالهم على علاتها "[1] ، وأفرد الجرجانى لقرينة الرتبة فصلا "موسعاً سماه (القول فى التقديم والتأخير)بدأه بقوله " هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفة ، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شى ء وحول اللفظ من مكان إلى مكان "[2] وقد درس فى هذا الفصل ألوانا من التقديم والتأخير غلب عليها الطابع البلاغى مثل تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريرى والإنكارى ، والاستفهام له التقدم والصدارة وتقديم الاسم والمضارع مع الاستفهام ، والرتبة عند الدكتور تمام حسان " قرينة لفظية وعلاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق يدل موضع كل منهما من الآخر على معناه " [3] ، تتضافر هذه القرينة مع غيرها من القرائن لتعيين المعنى ، أما الصيغة عند الدكتور تمام فهى قرينة لفظية تدل على الباب النحوى ، ومعانى الصيغ وثيقة الصلة بالعلاقات السياقية " فالفعل اللازم لا يصل إلى المفعول بغير واسطة ، وبعض الصيغ معناها اللزوم وذلك كالمطاوع والمبنى للمجهول من المتعدى لواحد وأفعال السجايا مثل فعل يفعل بضم العين وغير ذلك فمعنى الصيغة الصرفية ينبئ عن علاقاتها السياقية "[4] ، يقول الجرجانى عن الصيغة "ليس الغرض بنظم الكلم (الصيغ) أن توالت ألفاظها فى النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل "[5] ، ومن القرائن اللفظية الربط وهو من أهم القرائن اللفظية ، وهذه القرينة تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر " والمعروف أن الربط ينبغى أن يتم بين الموصول وصلته وبين المبتدأ وخبره وبين الحال وصاحبها وبين المنعوت ونعته وبين القسم وجوابه

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٠٧ .
(٢) دلائل الإعجاز ٨٥ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٠٧ .
(٤) اللغة العربية معناها ومبناها ٢١٠-٢١١ .
(٥) دلائل الإعجاز ٥١ .

وبين الشرط وجوابه ، ويتم الربط بالضمير العائد الذى تبدو فيه المطابقة كما يفهم منه الربط أو بالحرف أو بإعادة اللفظ أو إعادة المعنى أو باسم الإشارة أو (أل) أو دخول أحد المترابطين في عموم الآخر "[١] .

والحق أن قرينة الربط عند الدكتور تمام حسان فكرة جزئية لا تكاد تتعدى ما شرحه من وسائل الربط فى النص السابق أما الربط عند عبد القاهر الجرجانى فمعناه أوسع ومفهومه أشمل فهو يكاد يعادل النظم أو التعليق ، فالنظم ربط بين معانى المفردات فى الذهن يترتب عليه ترتيب الألفاظ فى الجمل والمتواليات والتعليق ارتباط المفردات من خلال ما بينها من علاقات ،أى أن الربط بهذا المفهوم الواسع عند عبد القاهر يعادل معيارى السبك والحبك عند علماء النص ، يقول الجرجانى موضحاً مفهوم الربط " أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج فى الجملة أن تضعها فى النفس وضعاً واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك "[٢] وقد تحدث عبد القاهر عن الربط حديثا مطولا تحت عنوان الفصل والوصل .

أما التضام فالمقصود به عند الدكتور تمام حسان " أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين العنصر الآخر فيسمى التضام هنا (التلازم) أو يتنافى معه فلا يلتقى به ويسمى (التنافى) [٣] ، فالتلازم يكون بين المبتدأ والخبر والفعل والفاعل والصفة والموصوف والحال وصاحبها والصلة والموصول والجار والمجرور ، والتنافى معناه استبعاد أحد المتنافيين عند وجود الآخر مثل (أل) والإضافة ، أو التنوين والإضافة ، وقد عبر الجرجانى عن فكرة التضام هذه عندما تحدث عن معانى النحو بقوله " ليست المزية بواجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها من بعض " [٤] ، ويقول " فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله وإذا نظرنا فى ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٢١٣ .
(٢) دلائل الإعجاز ٧٨ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٢١٧ .
(٤) دلائل الإعجاز ٧٤ .

تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صفة للأول أو تأكيدا له أو بدلا منه أو تجئ باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزاً أو أن تتوخى فى كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ،أو تريد فى فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر فتجى ء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى " [1] .

ففى قول الجرجانى (جعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها) إشارة إلى ما يسمى فى عرف الدكتور تمام حسان قرينة التضام ، وفى باقى جمل هذا النص إشارة إلى قرائن التعليق المعنوية فالعلاقة بين المبتدأ والخبر أو الفعل والفاعل علاقة إسناد والعلاقة بين النعت والمنعوت أو التأكيد والمؤكد علاقة تبعية ،ومعانى حروف النفى والاستفهام والشرط تندرج عند الدكتور تمام حسان ضمن قرينة النسبة ، ومن قرائن التعليق عند الدكتور تمام القرائن الحالية أو المقامية التى تعرف من المقام والتى تسمى عند علماء النص معيار المقامية ، الذى يقول عنه الجرجانى " إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر"[2] ففى قول الجرجانى (أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ) إشارة إلى فكرة المقام وكلمة (موضع) فى هذا النص معناها المقام ، وإن هذا النص ليطابق قول العرب (لكل مقام مقال ولكل كلمة مع صاحبتها مقام).

هذا وقد تحدث الجرجانى عن معيارى القصد والإعلام فقال :" الدلالة على الشى ء هى لا محالة إعلامك السامع إياه وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا ً عليه ، وأن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده " [3] وعن المقبولية فإن مجمل فكرة عبد القاهر الجرجانى فى النظم والتعليق هدفها نظم بناء سليم تتعلق معانى أجزائه ببعضها تعلقا محكما ،هذا البناء هدفه إعلام السامع أو القارئ بالأفكار التى

(١) دلائل الإعجاز ٥٤ .
(٢) دلائل الإعجاز ٤٨ - ٤٩ .
(٣) دلائل الإعجاز ٣٤٣ .

يقصدها الناظم ، فيحكم المتلقى أو القارئ على النص بمقبولية النص لديه وإحكامه وتماسكه .

المعنى ودلالة النص :

لاشك أن المعنى هو الهدف الأخص لأى دراسة لغوية ، والمعنى ثلاثة أنواع معنى معجمى ، ومعنى وظيفى ، ومعنى دلالى ، أما المعنى المعجمى فهو معنى الكلمة خارج السياق ، أو هو المعنى الصامت المختزن بين دفتى المعجم ، وحين يتكلم الفرد يستعين بهذا المخزون الصامت فينقل كلمات المعجم من الصمت أو السكون إلى الحركة ، والمعجم ليس نظاما من أنظمة اللغة وإنما هو قائمة مفردات مخزونة فى الذهن تنتقل بمجرد استخدامها فى نسق لغوى من اللغة إلى الكلام ذلك أن اللغة مجموعة أنظمة يضاف إليها المعجم ، أما الكلام فهو النطق حسب أنظمة هذه اللغة، وأما المعنى الوظيفى فيقصد به (المعنى النحوى) أو هو ما يعادل كلمة (باب) فى كتب النحاة كالابتداء والخبر والفاعلية والمفعولية وغيرها من المعانى النحوية وعندما قال النحاه (الإعراب فرع المعنى) إنما قصدوا المعنى النحوى لا المعجمى ولا الدلالى ، أما المعنى الدلالى فقد قسمه الدكتور تمام حسان قسمين [1] : المعنى المقالى والمعنى المقامى أما المعنى المقالى فيتكون من المعنيين الوظيفى والمعجمى ، والمعنى المقامى يتكون من ظروف أداء المقال ، والمعنى الدلالى هو أهم الأنواع الثلاثة لاعتماده على المقال والمقام فى آن معا ، وكتاب دلائل الإعجاز هو كتاب فى علم المعانى ، عمد عبد القاهر الجرجانى فيه إلى دراسة المعاني دراسة شاملة فأشار إلى المعانى المفردة وعلاقتها بالألفاظ أو ما يعرف فى علم اللغة الحديث بفكرة العلامة أو الدال والمدلول كما أشار الجرجانى إلى أهمية المعنى الدلالى للتركيب أو النص ، والأهم عند عبد القاهر الجرجانى عندما يتحدث عن المعانى فى هذا الكتاب هو نوع المعانى النحوية أو الوظيفية التى ترتكز عليها فكرة النظم عنده ، وهذا لا يعنى أنه أفرد كل كتابه للمعنى الوظيفى وإنما استحوذت فكرة المعانى الوظيفية على جل اهتمام عبد القاهر لأنها مرتكز رئيس ترتكز عليه فكرة النظم ، يقول الجرجانى " ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه "[2] .

---

(١) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٣٩ .

(٢) دلائل الإعجاز ٢٥٦ .

وقد أورد الجرجانى نصا يشتمل على أنواع المعنى الثلاثة المعجمى والدلالى والوظيفى يقول فيه " ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً (المعنى المعجمي) وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التى لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة (المعنى الوظيفي) هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ماهى موسومة به (المعنى الدلالى) "[1] ، وقد قسم الجرجانى المعنى الدلالى قسمين فقال " الكلام (يقصد المعنى الدلالى) على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد ، وبالانطلاق عن عمرو فقلت عمرو منطلق ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهى أن تقول المعنى تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر "[2] .

لم يكتف عبد القاهر الجرجانى بدلالات الصياغة اللغوية وإنما بحث فيما وراء هذه الدلالات فيما سماه المعنى ومعنى المعنى ، وقد ربط عبد القاهر الجرجانى بين المعانى المعجمية والمعانى الوظيفية ربطا رائعا يمكن من خلاله القول إن المعنى الدلالى ناتج عن المعانى المعجمية والمعانى الوظيفية وفكرة المقام

المعاني المعجمية	+	المعاني الوظيفية	+	المقام	=	المعنى الدلالي الأكبر
+		+		=		

يقول الجرجانى " ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو " [3].

(١) دلائل الإعجاز ٤٧ .
(٢) دلائل الإعجاز ١٧٧ .
(٣) دلائل الإعجاز ٢٢٦ .

ذلك أن الفصاحة- وهى قمة الدلالة عنده -لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ،فقولهم (أي القاضي عبد الجبار والخطابي وابن سنان وغيرهم) بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما "[1] ،وليس أدل على اهتمام عبد القاهر بالمعنى من تكرار إثبات المزية للمعنى لا للفظ فى عشرات المواقع فى كتابه دلائل الإعجاز يقول "وجملة الأمر أنه لا بد لقولنا (الفصاحة) من معنى يعرف فإن كان ذلك المعنى وصفاً فى ألفاظ الكلمات المفردة فينبغى أن يشار لنا إليه ،وتوضع اليد عليه ،ومن أبين ما يدل على قلة نظرهم أنه لاشبهة على من نظر فى كتاب تذكر فيه الفصاحة أن الاستعارة عنوان ما يجعل به اللفظ فصيحا وأن المجاز جملته والإيجاز من معظم ما يوجب للفظ الفصاحة، وأنت تراهم يذكرون ذلك ويعتمدون ثم يذهب عنهم أن إيجابهم الفصاحة للفظ بهذه المعانى اعتراف بصحة ما نحن ندعوهم إلى القول به من أنه يكون فصيحاً لمعناه " [2] .

وللوصول إلى المعنى فى صورته الشاملة- يقول الدكتور تمام حسان- " لابد أن نستخدم الطرق التحليلية التى تقدمها لنا فروع الدراسات اللغوية المختلفة وهى الصوتيات والصرف والنحو (أي الفروع الخاصة بتحليل المعنى الوظيفي) ثم المعجم (وهو الخاص بالمعنى المعجمي) والحقائق التى نصل إليها بواسطة التحليل على هذه المستويات حقائق جزئية بالنسبة إلى المعنى الدلالي " [3] .

وعن دلالة النص يقول الدكتور تمام حسان " حين تنفرد العلاقات العرفية بين الكلمات ومعانيها بالوجود فلا تكون هناك وظائف ولا مقام ،إن مجرد وضوح هذه العلاقات لا يؤدى إلى أي فهم للكلمات المفردة على المستوى المعجمي إذ إنها هنا لم توضع في سياق ، ووضوح معنى المفردات لا يكشف حتى عن المعنى الحرفي الذي سميناه (ظاهر النص) أو (معنى المقال) لأن الذي لدينا هنا (المفردات) وليس (النص) ، وذلك أيضاً لأن معنى (ظاهر النص) يحتاج إلى وظائف (المعنى الوظيفي) كما يحتاج إلى العلاقات العرفية بين المفردات ومعانيها (المعنى المعجمي) إذ منهما معاً يكون معنى (المقال) وانفراد العلاقات العرفية بين المفردات

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٥٦ .
(٢) دلائل الإعجاز ٢٩٦ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٤١ .

ومعانيها يجعل الأمر بحاجة أيضاً إلى معنى (المقام) أو المعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال (المعنى الدلالي) الأكبر "[١] والمقام هو مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا وسلبا ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان [٢] وعند علماء النص فإن دلالة النص تعتمد على تفكيك النص إلى الوحدات المكونة له ، وتفكيك النص إلى الوحدات المكونة له يعتمد على الإدراك السليم لبنيته العليا [٣]، أى أن الوصول إلى دلالة النص يعتمد على فهم الجزئيات المكونة له ، كما أن فهم هذه الجزئيات يعتمد على المعرفة الأولية لدلالة النص .

إن المعنى الكلى للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجملية المكونة له ، ولا تنجم الدلالة الكلية له إلا بوصفه بنية كبرى شاملة فالنص ينتج معناه بحركة جدلية أو تفاعل دائم بين أجزائه [٤] فالجملة داخل النص ذات دلالة جزئية ولا يمكن أن تنفرد بالتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التتابع الجملي [٥] .

وتحليل النص لفهم دلالته الكلية لا ينحصر في مقولات اللغة (المقال) على الرغم من أنه مشكل منها ذلك أنه يراعى جوانب لا تتمثل في الواقع اللغوي الفعلي بل توجد في الواقع الخارجي الذي يعبر عن مقولات غير لغوية خارج النص ويلح علماء النص على أن النص عملية إنتاج بمعنى أنه ليس وصفاً أو سردا لحقائق اللغة ، بل يترك مساحة كبيرة من الحرية للمفسرين لكى يقوموا من خلال عمليات التفكيك أو التجزئة بالكشف عن الأبنية الدلالية الكبرى التى تجمع المتواليات الجملية ، وتخلق توالداً مستمراً، هذه الأبنية الدلالية الكبرى يستطيع مفسر النص أن يربط من خلالها بين الجزئيات اعتماداً على خبرته وثقافته وتوجهه [٦] .

فالنص رمز لغوى مركب ، والرمز المركب إنما يساق للدلالة على معنى مركب ، وأن تركيب هذه الدلالة يبدو في صورة مزيج من المستويات الدلالية بعضها أصواتى وبعضها صرفي وبعضها نحوى أو معجمي أو دلالي

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٤١ -٣٤٢ .
(٢) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ٣٥١ .
(٣) انظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ، للدكتور صلاح فضل ٢٥٣ .
(٤) انظر علم لغة النص ٧٣ .
(٥) انظر علم لغة النص ١٣٥ .
(٦) انظر علم لغة النص ١١١ .

، ولكل مستوى من هذه المستويات اللغوية نصيب من الدلالة ، وتتجه الدراسة إلى جميعها بتحليل يشبه تحليل ألوان الطيف الضوئي ، وتسمى هذه المستويات مجتمعة باسم (الطيف اللغوي) [١] .

القارئ (المتلقى) والنص :

إن من يقرأ (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجانى يخلص إلى أن الجرجانى وهو يناقش مسألة الإعجاز والبلاغة والفصاحة كان لديه منطلق أساسي لم يفصح عنه منذ البداية وهو أن النص لكي يحقق تأثيره لابد من مراعاة عملية التواصل ومكوناتها المحدودة في ثلاثة عناصر هي المبدع والنص والمتلقي [٢] ، يقول الجرجانى " كما لا يتصور أن يكون هاهنا خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه ، كذلك لا يتصور أن يكون خبر حتى يكون له مخبر يصدر عنه ويحصل من جهته أو يكون له نسبة إليه ، وتعود التبعة فيه عليه ، فيكون هو الموصوف بالصدق إن كان صادقا وبالكذب إن كان كاذبا (دور المتلقى) [٣] أما المبدع فإن الأسلوب يرتبط أساسا بعقله وفكره قبل أن يرتبط باللغة ، ولذلك اشترط الجرجانى أن يكون التناسق أولاً في عقل المبدع وفكره وبعدهما فى الألفاظ [٤] ، يقول " ليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظها فى النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل "[٥] ،إنه استحضار للحظات التأمل والمعاناة والشعور عند المبدع حيث يرتب المعانى فى نفسه على نحو متسق منسجم،ثم يأتى وفق ترتيب المعانى فى النفس ترتيب الكلام ، فالصورة الجمالية قبل أن تدرك فى لغة المبدع وعمله ، تدرك فى انفعالاته النفسية ، وتأملاته الذاتية الداخلية [٦] وبعد إنجاز المبدع لمهمته يكون النص أو الخطاب أو العمل الأدبى حلقة وصل بين المبدع والمتلقى الذى لا يمكن النظر إليه على أنه متلق واحد ،وإنما هو قراءة من بين قراءات مختلفة تتعامل مع الخطاب حسب آفاقها ومداركها ، ولعل هذا من الأسباب المباشرة

---

(١) انظر اللغة بين المعيارية والوصفية ١١٧ .
(٢) انظر التلقي والتواصل الأدبي قراءة في نموذج تراثي للدكتور أحمد المنادى ١٨٣ – ١٨٤ .
(٣) دلائل الإعجاز ٣٤٢ .
(٤) انظر التلقي والتواصل الأدبي ١٨٤ .
(٥) دلائل الإعجاز ٥١ .
(٦) انظر التلقي والتواصل الأدبي ١٨٥ .

التى تجعل النص يخترق الزمان والمكان ويحيا مع متلقيه وقارئه ،وإذا كان من أصناف المتلقين من يقرأ ويؤول بحثا عن المتعة والتسلية فإن منهم كذلك من يتلقى الخطاب وهو يروم استنباط القراءات المتناهية [١] إن عبد القاهر الجرجانى لا مس جانبا مهما من مباحث الدلالة يرتبط بالجانب التداولي وهو المتلقي الذي يبذل جهداً في فك شفرة المعنى من خلال الاستدلال العقلي على المعنى المقصود ، وهذا من شأنه أن يجعل المتلقى طرفا مساهما في بناء النص من حيث تأويله وبيان دلالته [٢] يقول الجرجانى مخاطبا القارئ " وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لابد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستنجده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة [٣]لقد كان الجرجانى على وعى كبير بأهمية عنصر التأثير في المتلقى ، والتأثير عنده قمة جمالية النص ، هذا التأثير يجعل المتلقى يقف على معاناة المبدع، وعنصر التأثير أخذ حيزاً كبيراً فى دراسة الجرجانى للصورة الشعرية حيث اعتبر الأدب قائما على قانون نفسى يتجاذبه النظم والتأثير ، فالمتلقى يستحسن الصورة أو النص الشعرى بحسب درجات حضور جمالية النظم والتصوير [٤] ، يقول الجرجانى " واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى البعض حتى تكثر فى العين فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ... حتى تستوفى القطعة وتأتى على عدة أبيات ، ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق " [٥] ، ومن ثم يصبح القارئ فى تصور الجرجانى مساهماً فى تشكيل النص وبناء دلالته.

وقد وضح الدكتور تمام حسان أن من مهام القارئ فى بناء النصوص إعادة بناء المقام ، يقول الدكتور تمام " ومغزى هذا أن المعنى الحرفى غير كاف لفهم ما قيل لأنه قاصر عن إبداء الكثير من القرائن الحالية التى تدخل فى تكوين المقام ، وإن الكثير من نصوص تراثنا العربى قد جاء غامضاً لأن الذين رووا هذه النصوص لم يعنوا بإيراد وصف كاف للمقام الذى أحاط

(١) انظر التلقي والتواصل الأدبي ١٩٢ .
(٢) انظر التلقي والتواصل الأدبي ١٩٤ .
(٣) دلائل الإعجاز ٤٥ .
(٤) انظر التلقي والتواصل الأدبي ١٩٧ .
(٥) دلائل الإعجاز ٧٥ .

بالنص ومن ثم ينبغى لنا (القارئ) أن نبذل الجهد مضاعفاً عند التصدى لشرح هذه النصوص حتى نستطيع إعادة بناء المقام على أساس من التاريخ ومن علم النفس والمجتمع العربى القديم والاقتصاد القديم أيضاً والمزاوجة بين كل من أولئك بواسطة الخيال والعقل الثاقب النفاذ "[١] .

هذا وأولى علماء النص اهتماماً بالغاً بالمتلقي " فإذا كانت البنية الكبرى للنص ذات طبيعة دلالية ، وكانت متعلقة ومشروطة بمدى التماسك الكلى للنص فإن الذى يحدد إطارها هو المتلقى ، لأن مفهوم التماسك ينتمى إلى مجال الفهم والتفسير الذى يضفيه القارئ على النص ، وتأويل النص من جانب القارئ لا يعتمد فحسب على استرجاع البيانات الدلالية التى يتضمنها النص بل يقتضى أيضاً إدخال عناصر القراءة التى يملكها المتلقى ، داخل ما يسمى بكفاءة النص ، ومعنى هذا أن القارئ لا يقوم فحسب بعملية ترجمة للبيانات دلاليا فى النص بل هو الذى يضع لها الإطار الذى يراها من خلاله " [٢] ، وتحتاج العلاقة بين النص والقارئ إلى إيضاح تسهم اتجاهات تحليل النص فيه من خلال اهتمامها بعملية القراءة ، فالنص نظام من الكتابة ولكن يندرج تحت نظام أكبر، ولهذا فإنه لا ينبغى للقارئ أن يركز على استنباط المعنى الخبرى أو يعطى له الصدارة فى التحليل ، كما يحدث فى القراءة التفسيرية بل ينبغى على القارئ أن يركز قراءاته على إدراك العلاقات بين المستويات المتعددة للغة [٣] ، والقارئ حر فى أن يدخل إلى النص من أى جانب منه ، إذ ليس هناك طريق واحد يعد أسلم الطرق المقاربة للنص ، وهو حر كذلك في أن يمتع نفسه بالنص مهملا قصد الكاتب [٤] .

وقد تركز الاهتمام على التفاعل بين القارئ ولغة النص ، فالنص عالم من البنيات والدلالات يتم إنتاجها من خلال النص نفسه ولا يُغفل دور الكاتب والقارئ في تفسير النص الذي يحتاج إلى معرفة عريضة شاملة تختلف طبيعتها في اتجاهات التحليل النصي المختلفة ، بمعنى أن دور القارئ لا يقتصر على مجرد تفسير ما هو قائم (بناء النص) بل يتخطى ذلك بإدخال معارف وتصورات ومقولات تثرى عملية التفسير [٥] .

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٧٣ .
(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص ٢٦٠- ٢٦١ .
(٣) انظر علم لغة النص ١٥٩ .
(٤) انظر إلى علم لغة النص ١٦٠ .
(٥)انظر علم لغة النص ١٦٢ – ١٦٤ .

فبنية النص إذن بنية لغوية منطوقة فى المقام الأول ، غير أنها مرتبطة فى استمرارها وتحقق دلالتها بأركان التواصل وهي المنتج أوالمنتجون والمتلقى أوالمتلقون ، والتفاعل بين الطرفين من خلال عملية التلقى ، ذلك المكون الذى يضمن استمرار النص أو تتابع سلسلة الاتصال أو انقطاعها عند نقطة محددة أو فى موضع بعينه ، ويشترط فى التتابع تحقق المغزى ، وإذا فقد النص أى عنصر من هذه العناصر انهارت بنيته وتناثرت أجزاؤه ، غير أنها تظل قائمة محتفظة بدلالاتها المحددة [١] .

فكرةُ التَّداخل المعرفي :

إن فكرة التداخل المعرفى تشبه إلى حد كبير ما قالته العرب فى تعريف الأديب بأنه " الملم من كل فن بطرف " وإنما قصدوا بالفنون الآداب والمعارف ، فالأديب أو المؤلف يجب أن يكون ملماً بالآداب والمعارف المختلفة ، وإن كثيرا من المؤلفين فى القرون الأولى كانوا يؤلفون فى علوم شتى ، فنجد أبا عبيدة معمر بن المثنى التيمى يؤلف فى مجاز القرآن وغريب القرآن ومعانيه ، والحديث، والحيوان، والأمثال ، والأخبار ، والقبائل ، والمنافرات ،والتاريخ ،واللغة [٢]، ونجد ابن السراج يؤلف فى الأصول ، والاشتقاق ، واحتجاج القراءة والشعر والشعراء ، والرياح والهواء والنار ، والأخبار والمذكرات [٣] هذا من ناحية التأليف ، أما من ناحية التحليل فقد وضع العلماء شروطا فى المفسر لآى الكتاب العزيز يجب أن يلم بها وهى أن يكون حافظا لكتاب الله العزيز ، فاهما لقراءاته ، مطبقا لشرائعه ، حافظا للحديث وعلومه ، متابعا للتفاسير الأخرى ، على دراية تامة بعلوم اللغة من صرف ونحو ومعاجم ، وأن يكون ملما بالأحداث التاريخية التى تساعده فى فهم أسباب نزول الآيات ومن ثم تفسير الآيات تفسيراً غير منفصل عن مقاماتها وسياقاتها الاجتماعية ، أى أن العلماء العرب فطنوا إلى فكرة التداخل المعرفى منذ بدء ظاهرة التأليف ، وكان ذلك مواكبا لتفسير القرآن الكريم ، وشرح الأحاديث النبوية الشريفة ، فالشروط التى وضعتها العرب فى المفسر تمثل فكرة التداخل المعرفى خير تمثيل ، وفكرة التداخل المعرفى تتطلب دراية واسعة بفروع العلوم المختلفة يقول

---

(١) انظر علم لغة النص ١٨٧ .
(٢) انظر الفهرست لابن النديم ٨١ – ٨٢ .
(٣) انظر الفهرست ٩٤ .

الدكتور سعيد حسن بحيرى في تقديمه لكتاب علم لغة النص " فقد تشعبت المنابع التى استقى منها (التداخل المعرفي) مفاهيمه وتصوراته ومناهجه ، واتسم هو نفسه بقدرة فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين ، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل من جهة ، وإبراز جوانب التفارق بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية " .

هذه الفكرة يجب أن تتحقق لدى المبدع والمتلقى كليهما ، فالمبدع يوظف ما يتداخل عنده من أفكار وثقافات ومعارف يرتقى من خلالها بإبداعه ،والمتلقى يوظف هذا التداخل المعرفى فى فهم النص وسبرأغواره.

ولم تخل أفكار عبد القاهر الجرجانى من فكرة التداخل المعرفى ، يقول " قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيز المعانى دون الألفاظ ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل رويتك وتراجع عقلك ، وتستنجد فى الجملة فهمك "[1] ، لعل فى قول الجرجانى " إشارة إلى فكرة التداخل المعرفى لدى المتلقى حيث يستعين بفكره (معارفه المتداخلة) ويعمل رويته ويراجع عقله لفهم المعنى ، ويقول فى موضع آخر " وجملة الحديث أنا نعلم ضرورة أنه لا يتأتي لنا أن ننظم كلاماً من غير روية وفكر " [2] ففى هذا إشارة إلى فكرة التداخل المعرفى لدى المبدع الذى يحكم فكره ومعارفه من أجل الارتقاء بنظمه وإبداعاته .

ويقول الدكتور تمام حسان عن التداخل المعرفى " لعل السبب الرئيسى فى ضرورة التزام طلاب اللغة العربية وأدبها بدراسة مقررات من التاريخ الإسلامى والفلسفة الإسلامية والتفسير والحديث والأدب والشريعة وغيرها أن طالب اللغة العربية حين ينظر فى نص أدبى معين ينبغى أن يكون له من المعلومات الشاملة فى هذه الفروع جميعا ما يعينه على فهم المقام الذى قيل فيه هذا النص حين يلخص له هذا المقام ، وقد تعودنا أن نقول لطلبتنا دائماً عن هذه الفروع التى يطلقون عليها (العلوم المساعدة) إنها فروع إيضاح لمقامات النصوص التى نصادفها فى التراث العربى "[3] .

وقد شكلت الخواص التركيبية والدلالية والاتصالية للنصوص صلب البحث النصى ، بمعنى أن البحث يتحقق على مستويات ثلاثة أساسية

---

(١) دلائل الإعجاز ٥٩ .
(٢) دلائل الإعجاز ٢٣٥ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٤٧ .

هى :المستوى النحوى ، والمستوى الدلالى ، والمستوى التداولى ، ولايجوز الفصل بين هذه المستويات مع مراعاة مواضع التماس بينها وبين علوم الأدب والبلاغة والأسلوب ، مع إدخال عناصر أخرى تعود إلى علم النفس وعلم الاجتماع ، والفلسفة والمنطق وغيرها ، ذلك أن فكرة التداخل المعرفى تهدف إلى الجمع بين العناصر اللغوية والعناصر غير اللغوية لتفسير الخطاب أو النص تفسيراً إبداعيا [١] ، يقول الدكتور صلاح فضل " لا مفر لنا عند تحليل النصوص من توظيف معرفتنا الأدبية بخواص الأجناس التى تنتمى إليها هذه النصوص فعندما نشرع فى قراءة رواية مثلا تصبح المكونات التى نتوقعها والتى تحدد معالمها الأساسية فى تجربتنا الجمالية والإنسانية خاضعة لطبيعة مفهومنا عن الرواية ، مما يجعل الأمر مختلفا عندما نشرع فى قراءة قصيدة أو مقال صحفى "[٢] .

(١) انظر مقدمة علم لغة النص ( ) .
(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص ٢٥٤ .

خاتمـــــــــة

يستقى هذا البحث أهميته من أنه يسرد عناصر النظرية اللغوية العربية التى أنتجتها عقول وأفكار المبدعين العرب في الفترة من الجاحظ حتى عبد القاهر الجرجانى ، وأن النظرية اللغوية الغربية حديثة عهد بالنسبة للنظرية العربية التى نضجت وأصبحت شبه متكاملة مع نهاية القرن الخامس الهجري ، وما فعله الغربيون من تطوير لأركان نظريتهم وتقديمها في أزهى ثوب كان على العرب أن يفعلوه بعد عبد القاهر الجرجانى مباشرة أي أن الفكر اللغوي لو تواصل بعد عبد القاهر الجرجانى لكان لدينا ما يدعيه الغرب من فضل في تأسيس نظرية لغوية مكتملة الأركان منذ القرن السادس الهجري تقريباً ، وثمة ثلاث أفكار تكفى بمفردها لشرح عناصر النظرية اللغوية العربية هي النظم وتضافر القرائن ونحو النص ، وإن كان مردها جميعا إلى فكرة النظم فإن كل فكرة بمفردها تضم أركان النظرية اللغوية العربية ، و يمكن القول إن هذه الأفكار هي ظلال نصوص لمعنى واحد أو لفكرة واحدة هدفها جميعاً بناء و تحليل النصوص الأدبية إلا أنه يمكن القول إن فكرة النظم هي فكرة بناء وتحليل معاً،أما تضافر القرائن فهى فكرة تحليل أكثر منها فكرة بناء ،ونحو النص فكرة تحليل ، وهذه أيضاً ميزة اتسم بها الفكر اللغوي لعبد القاهر الجرجانى مع مراعاة أنه لا يمكننا الفصل بين الهدف من البناء والتحليل .

وبعد دراسة عناصر النظرية اللغوية العربية المتمثلة في النظم وتضافر القرائن ونحو النص يمكن التوصل إلى النتائج الآتية :

١. يعد كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) للدكتور تمام حسان حلقة وصل بين فكرة النظم ونحو النص .
٢. الوصول إلى دلالة النص يعتمد على فهم الجزئيات المكونة له ، كما أن فهم هذه الجزئيات يعتمد على المعرفة الأولية بدلالة النص.
٣. نظرية النظم لعبد القاهر الجرجانى هى فكرة بناء وتحليل أما تضافر القرائن فهي فكرة تحليل أكثر منها بناء ، ونحو النص فكرة تحليل .
٤. فكرة التداخل المعرفي يجب أن تتحقق لدى المبدع والمتلقي كليهما ، فالمبدع يوظف ما يتداخل عنده من أفكار ومعارف يرتقى من خلالها بإبداعه ، والمتلقي يوظف هذا التداخل المعرفي في

فهم النص وسبر أغواره ، وثمة فرق بين التداخل المعرفي ومـــا يقوله البعض من أن الفكرة متداخلة ، فالتداخل المعرفـــي فكـرة ذهنية معناها تكامل المعارف داخل الذهن هذا التكامل يساعد فـــي عمليتي البناء والتحليل ، أما تداخل الفكرة فيظهر بصورة ماديـــة من خلال الإفصاح عن الفكرة نطقا أو كتابة ومعناه عدم وضـــوح الفكرة وأن لبساً يعترض أفكار المبدع أو المتلقى .

المراجع

١. الأصول (دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب) الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب ، ٢٠٠٠ م .

٢. الإيضاح في علل النحو الزجاجى ، تحقيق مازن المبارك ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ١٩٧٤ م .

٣. بلاغة الخطاب وعلم النص : الدكتور صلاح فضل ، عالم المعرفة ١٩٩٢ م .

٤. بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) . الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجانى ، تحقيق محمد خلف ومحمد مندور ،وزغلول سلام ، دار المعارف ١٩٧٦ م .

٥. البيان في روائع القرآن : الدكتور تمام حسان ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، ١٩٩٣ م .

٦. البيان والتبيين (بحاشية موفق شهاب الدين) . الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، الطبعة الأولى ،دار الكتب العلمية ١٩٩٨ م .

٧. تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣.

٨. التصريح بمضمون التوضيح (بحاشية العليمى) . الشيخ خالد الأزهري ، دار إحياء الكتب العربية (بدون تاريخ).

٩. التلقي والتواصل الأدبي (قراءة في نموذج تراث) . الدكتور أحمد المناوى ،بحث ضمن سلسلة عالم الفكر ،العدد الأول المجلد الرابع والثلاثون، يوليو – أغسطس ٢٠٠٥ م .

١٠. الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصطفى البابى الحلبي ، ١٩٤٨ م .

١١. الخصائص : ابن جنى ، تحقيق عبد الحكيم بن محمد ،المكتبة التوفيقية (بدون تاريخ) .

١٢. دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجانى ،المكتبة التوفيقية (بدون تاريخ) .

١٣. شرح المفصل : ابن يعيش ،عالم الكتب ،(بدون تاريخ) .

١٤. العربية من نحو الجملة إلى نحو النص . الدكتور سعد مضلوع – مقالة في – التذكاري المهدى إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذاكراه الثانية ، جامعة الكويت ١٩٩٠ م .

١٥. علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) . سعيد حسن بحيرى ، الطبعة الأوكلى ، مكتبة الانجلو المصرية (١٤١٣هـ – ١٩٩٣ م) .

١٦. (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) . فرديناند دى سوسير .جوناثان كللر ، ترجمة عز الدين إسماعيل ،المكتبة الأكاديمية بالقاهرة ٢٠٠٠م .

١٧. الفهرست : ابن النديم ، تحقيق محمد أحمد أحمد ،المكتبة التوفيقية (بدون تاريخ) .

١٨. كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري ، تحقيق مفيد قميمة ، دار الكتب العلمية بيروت ،١٩٨١ م .

١٩. اللغة العربية بين المعيارية والوصفية . الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب ،٢٠٠١م .

٢٠. اللغة العربية معناها ومبناها . الدكتور تمام حسان ، الطبعة الثالثة ، عالم الكتب ١٩٩٨ م.

٢١. اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربي) . شكري عياد ، القاهرة ١٩٨٨ م .

٢٢. اللفظ والمعنى في البيان العربي . محمد عايد الجابرى ، مجلة فصول ، العدد الأول ، المجلد السادس ١٩٨٥ م .

٢٣. المرايا المقعرة : الدكتور عبد العزيز حمودة ،عالم المعرفة ، أغسطس ٢٠٠١ م .

٢٤. المغنى في أبواب التوحيد والعدل . القاضي عبد الجبار ، تحقيق أمين الخولى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة ،١٩٦٠ م .

٢٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء . حازم القرطاجنى ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة : بيروت (دار الغرب الإسلامي) ١٩٨١ م.

٢٦. نحو النص (اتجاه جديد في دراسة النحو العربي) . الدكتور أحمد عفيفى ،صحيفة دار العلوم ،العدد السادس عشر ، رمضان ١٤٢١ هـ ، ديسمبر ٢٠٠٠ م.
٢٧. نظرية العلاقات أو النظم بين عبد القاهر الجرجانى والنقد الغربي الحديث : الدكتور محمد نايل أحمد ، دار المنار ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.